wadod.org

الذخائر

مجلة فصلية محكمة

تعنى بالآثار والتراث والمخطوطات والوثائق

في هذا العدد:

- الأحوال العامة في مكة المكرمة خلال القرن العاشر الهجري ..... د. قيس كاظم الجنابي
- علم التصريف بين الاستقلال والتبعية ..... د. عبد الله عويقل السلمي
- أهداف مسكويه التربوية والنفسية ..... أ. عجيل نعيم جاب
- الحمامات العامة في بلاد الشام في العصر المملوكي ..... د. خالد زنبدر
- نقابة الأشراف في النجف ـ العراق ..... أ. كامل سلمان الجبوري
- القصيدة الشمسية ـ نادرة من التراث ..... تحقيق: أ. د. جورشيد رضوي
- نصوص من كتاب المعلمين للجاحظ ..... أ. منير حمدان علي
- محمد بن يزيد الحصني ـ حياته وما بقي من شعره ..... إبراهيم بن سعد الحقيل
- أحمد فارس الشدياق ـ صاحب مطبعة الجوائب ..... د. بدري محمد فهد
- مصادر علم التصريف، منوا وشروحا وحواشي ..... أ. د. هاشم طه شلاش
- تعقيب وتصويب حول فهرس مخطوطات مكتبة الجزائري النجفي ..... النجفي
- هوامش على فهرس مخطوطات مكتبة الروضة الحسينية في كربلاء ..... أ. منير حمدان علي
- تصحيحات واستدراكات على معجم المؤلفين العراقيين لكوركيس عواد ـ القسم الأول ..... د. صباح نوري المرزوك
- قراءة في كتاب العروض للأخفش، بتحقيق د. أحمد محمد عبد الدايم ..... د. عمر خلوف
- الجامع للرسائل والأطاريح في الجامعات العراقية ..... د. عبد الرحمن حسن العارف
- حول تحقيق القصيدة المنفرجة لابن النحوي ..... أ. د. زهير غازي زاهد
- ديوان الشاب الظريف، نظرات ومستدرك ..... أ. عباس هاني الجراخ

wadod.org

أحمد فارس الشدياق

صاحب مطبعة الجوائب

الأستاذ الدكتور بدري محمد فهد(*)

عرفت أوربا المطبعة واستخدمتها لطبع الكتب وقد سبقت بذلك العالم الإسلامي الذي لم يعرفها إلا في الثلث الأول من القرن الثامن عشر عندما أصبحت هناك مطبعة بالحروف العربية والتركية(١).

وقد كان افتتاح القرن التاسع عشر في أيام السلطان الغازي سليم خان الثالث وكان من أفضل السلاطين، مغرماً بالأدب راغباً بالنهوض بالبلاد. ثم صارت السلطنة إلى ابن عمه السلطان مصطفى خان الرابع الذي لم يحكم أكثر من سنة. فتولى الحكم من بعده أخوه السلطان محمود خان الثاني منذ سنة ١٨٠٨ م فطالت مدته وكان كالسلطان سليم راغباً في ارتقاء شعبه ساعياً في نشر فنون الأدب.

ومن مساعي السلطانين سليم ومحمود المشكورة تعزيزهما أمر الطباعة في دار السعادة فطبعت فيها عدة تآليف عربية فضلاً عن المصنفات التركية. وكان من جملة ما تم طبعه كتاب (القاموس المحيط للفيروز أباذي سنة ١٨١٤ م مع شرحه بالتركية. و (حاشية السيلكوني على مطول التفتازاني) سنة ١٨١٢ م وغيرها(٢).

ومضت الطباعة في تركيا تتعثر تارة وتتقدم تارة أخرى. وبلغ عدد ما نشر من المؤلفات العربية بين سنة ١٨٠٠ وسنة ١٨٣٠ م أكثر من أربعين كتاباً(٣).

---

* أستاذ في كلية الآداب بجامعة بغداد ـ العراق.

(١) صابات: ١٧ وأول مطبعة عربية ظهرت كانت في (فانو) بإيطاليا حيث أمر بها البابا (يوليوس الثاني) وأخذت تعمل في سنة ١٥١٤م في عهد البابا (ليو العاشر). وأول كتاب عربي طبع في هذه السنة كان كتاباً دينياً سنة ١٥١٦م وبعد قليل طبع القرآن في البندقية ولكن الطبعة أحرقت خشية أن يؤثر في عقائد النصارى. وطبع كتاب القانون لابن سينا في روما سنة ١٥٩٣م، في مجلد ضخم. وتعددت المطابع العربية في أوربا وطبعت مئات الكتب العربية ـ جرجي زيدان: آداب اللغة العربية ٤: ٤٤.

(٢) شيخو: الآداب العربية في القرن التاسع عشر ١: ١٩.

(٣) صابات: ٢٧. طرازي ١: ٢٧ وفي ملحق تركيا للمؤرخ الألماني هامر J. Le Hammer، سجل لهذه المطبوعات (مجلد ١٤ ص ٤٩٢ـ٥٠٧) نقلاً عن شيخو.

wadod.org

ويصف لنا السائحان (ميشو وبوجولا) مطبعة الأستانة وصفادقيتا خلال زيارة أحدهما لها في سنة ١٨٣٠ م بقوله «لقد نقلت المطبعة من سكوتاري إلى العاصمة حيث خصص بناء واسع الأرجاء كان حماماً عمومياً فيما مضى. وتشمل المطبعة قاعة للتصحيح يجلس فيها المستخدمون على الأرض ويقومون بعملهم وهم على هذا الوضع. وفي قاعة ثانية حسنة الإضاءة واسعة ركبت أربع طابعات استوردت من باريس وفي جانب آخر من تلك القاعة استلقى ستة من منضدي الحروف على الأرائك وأخذوا يجمعون حروف أحد الكتب. وقد سبكت الحروف في الأستانة وجلب الورق من تريستا في إيطاليا. ويبدو مما شاهده أحد السائحين أن عمل المطبعة قليل جداً بالنسبة لأمبراطورية مترامية الأطراف».

ولم تكن الحكومة التركية أول الأمر تمنح المطبعة أية إعانة مالية تسمح لها باستخدام عمال مهرة وباستيراد طابعات حديثة[١].

ولم يكن الجو مهيئاً لاستخدام الطباعة بشكل أوسع إذ أن الحكومة كانت ترى في المطبعة اختراعاً غريباً يجب الحذر منه. كما أن تخلف عقلية الأمة آنذاك وتخوفها وارتيابها بكل جديد ساعد على تعثر مسيرتها.

إلا أن الأحوال أخذت تتغير قليلاً فبدأ العلماء يقنعون أنفسهم بأنّ المطبعة إن لم تأت بنفع فهي لا تسبب ضرراً. وهكذا سمح للمطبعة السلطانية بطبع كافة الكتب المتعلقة بالدين عدا القرآن نفسه[٢].

أما الطباعة في البلاد العربية فلم تكن أحسن حالاً من دار السلطنة العلية ففي لبنان كانت مطبعة واحدة عربية وهي مطبعة الشوير وكانت أكثر مطبوعاتها دينية لا مدرسية.

وأما في مصر فإن أول مطبعة عربية أدخلت إليها كان ذلك قبل دخول القرن التاسع عشر بثلاث سنوات وهي التي جلبتها اللجنة العلمية المصاحبة لنابليون ومما طبع بها سلسلة التاريخ وكانت سجلات لمحاضر جلسات الديوان والحوادث الهامة وكتاب التهجئة في العربية والتركية والفارسية ١٧٩٨ م وكتاب القراءة العربية ومعجم فرنساوي عربي، ثم نحو اللغة المصرية العامية.

وفي سنة ١٨٠٠ م عاد المسيو مرسال مدير هذه المطبعة إلى باريس ومعه مطبعته. ولم يستأنف المصريون الطباعة إلا في أيام الوالي محمد علي باشا سنة ١٨٢٢ م إذ صدرت (جورنال الخديو) بالعربية والتركية وكانت تطبع بالقلعة ثم أنشأ مطبعة بولاق، وأردف في السنة التالية بكتاب قانون صباغة الحرير وغيرها. ومطبوعات بولاق إلى سنة ١٨٣٠ م تربو على الخمسين في اللغات الثلاث العربية والتركية والفارسية.

إلا أن الكتب العربية المهمة لم تطبع إلا بعد هذه المدة، وهي في الغالب إعادة لما تم

---

(١) صابات: ٢٧.

(٢) صابات: ٢٧، ٢٨.

wadod.org

طبعه في الأستانة[١].

وهكذا ظلت الكتب العربية قليلة الانتشار سواء منها التي تم طبعها في أوربا، والتي لم يكن يعرفها إلا بعض الأفراد من أهل المشرق فضلاً عن كونها محدودة العدد وضعت لمنفعة العلماء وليس لمنفعة كافة الناس[٢].

ولما كان انتشار الكتب مقترناً بانتشار المدارس وكثرة المتعلمين فيها لذا كانت الكتب والمطابع قليلة العدد لقلة المدارس في بداية القرن التاسع عشر فغاية ما كان يرى منها بعض الكتاتيب الابتدائية القريبة في المساجد والأديرة ولا سيما في الحواضر العربية كدمشق وحلب وبغداد والإسكندرية والقاهرة. وهناك مدارس دينية أعلا رتبة من الكتاتيب تدرس علوم اللغة العربية وآدابها فضلاً عن الفقه والتفسير[٣].

لذا فإن المشهورين في أوائل القرن التاسع عشر هم ممن قام بالتعلم على يد المشايخ أو على أفراد أسرهم ثم واصلوا التعلم بأنفسهم دونما مدرسة أو معهد.

ولقد كان لبعض الولاة المصلحين دور في إنشاء المدارس في بعض العواصم العربية مثل سليمان باشا القتيل، ثم داود باشا ببغداد، وسليمان باشا في عكا، ويوسف باشا كنج في دمشق[٤]، ومحمد علي في مصر.

ولعل للأزهر دوراً مميزاً في هذا الزمن الذي نتحدث عنه فقد صان لأهل مصر وللعرب والمسلمين آداب اللغة العربية وعلومها فضلاً عن العلوم الإسلامية المختلفة. وكان يعلم فيه نخبة من العلماء، فمنهم الشيخ عبد الله بن حجازي الشهير بالشرقاوي، الذي درس في الأزهر وانتقلت إليه مشيختها سنة ١٢٠٨ هـ وبقي عليها إلى سنة ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م وقد خلف عدة تصانيف دينية في التوحيد والعقائد والتصوف. ومن تآليفه مختصر مغني اللبيب في النحو، وله في التاريخ كتاب طبقات الشافعية المتقدمين والمتأخرين، وكتاب تحفة الناظرين في من ولي مصر من الولاة والسلاطين. وقد طبعت هذه التحفة عدة مرات.

وممن كان له سمعة في ذلك الوقت من الأزهريين الشيخ محمد الخالدي المعروف بابن الجوهري فكان يدرس بالأزهر وطار صيته فوفدت عليه الوفود من الحجاز والمغرب والهند والشام (توفى سنة ١٢١٥ هـ / ١٨٠١م) وتركته العلمية كثيرة ومدارها في الفقه وما يتعلق به.

ومن أدباء الأزهر في ذلك الوقت الشيخ مصطفى بن أحمد المعروف بالصاوي. وله النثر الطيب والشعر الحسن. ومنهم الشيخ حسين بن عبد اللطيف العمري الشهير بابن عبد الهادي القادري[٥].

---

(١) شيخو: ١: ٢٠، وانظر عمر الدسوقي: في الأدب الحديث: ١: ٤١.
(٢) شيخو: ١: ٢٠.
(٣) شيخو: ١: ٢٠.
(٤) م.ن.
(٥) شيخو: ١: ٨.

wadod.org

أما في العراق فقد اشتهر من العلماء والأدباء أمثال أبي الثناء الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م) وعبد الغفار الأخرس البغدادي. ومن مشهوري بلاد الشام ناصيف اليازجي، والمعلم بطرس البستاني (١٢٦٨هـ / ١٨٥١م).

فهؤلاء ممن نبغ قبل مجيء «الإرساليات التبشيرية إلى الشام، أو قبل مجيء نابليون إلى مصر، ممن درس على المشايخ، وواصل تعليمه بجهده الشخصي»[١].

أمّا الصحافة العربية التي ستصبح إحدى وسائل التثقيف والمعرفة فقد بدأت أولاً بمصر عند طبع (الوقائع المصرية) التي صدرت سنة ١٨٢٨م في زمن الوالي محمد علي باشا كما مرَّ بنا. وقد استمر ظهورها ثلاث مرات أسبوعياً لسنين عديدة. ثم ظهرت الجرائد في البلاد العربية الأخرى. فالسالنامة (السجل السنوي للدولة العثمانية سنة ١٢٨٦هـ/ ١٨٥١ ـ ١٨٥٢م المطبوعة في دار السلام عدت منها إحدى عشرة جريدة في أستانة العلية، وخمساً في أزمير، وأربعاً في مصر.

وفي تشرين الأول سنة ١٨٥٤م أنشأ رزق الله حسون الحلبي أول جريدة عربية في دار السعادة وسماها (مرآة الأحوال). وخلفتها جريدة السلطنة لمحررها اسكندر أفندي شلهوب.

أما سورية فكانت أول جرائدها (حديقة الأخبار) أنشأها الأديب خليل الخوري، وظهر أول أعدادها سنة ١٨٥٨م ولم تزل موجودة حتى وفاة منشئها سنة ١٩٠٧م.

ثم ظهرت جريدة تونس الرسمية (الرائد التونسي) سنة ١٨٦٠م وفي تموز سنة ١٨٦٠م أنشأ أحمد فارس الشدياق جريدة الجوائب في الأستانة، فبقيت حتى سنة ١٨٨٤م[٢].

وفي سورية ظهرت جريدة (سورية الرسمية) سنة ١٨٦٥م ثم ظهرت في مصر جريدة (وادي النيل) سنة ١٨٦٧ وتوالى بعدها ظهور الجرائد[٣].

أما في الأستانة فبعد أن كثرت المطابع فيها أصدرت الحكومة العثمانية في سنة ١٨٥٧م أمراً بتنظيم شؤون المطابع في الإمبراطورية العثمانية، جاء في المادة الأولى من ذلك النظام أن على من يريدون فتح مطبعة «أن تتحقق كيفياتهم بمعرفة مجلس المعارف والضبطية ثم يحصل بعد ذلك الاستئذان من مقام الصدارة العظمى العالي بمضبطة من المجلس المذكور ويعطي لهم بذلك سند يحوي المأذونية من جانب الضبطية»[٤].

وقد اهتمت الحكومة العثمانية بإنشاء المطابع في الأقاليم التابعة لها فقد أمر السلطان عبد الحميد الثاني بإنشاء مطبعة في صنعاء باليمن سنة ١٨٧٧م وبعد خمس سنوات أسست مطبعة في الحجاز[٥].

وبعد أن توافرت الأسباب للمطابع بالنهوض خطت قدماً في الربع الأول من القرن العشرين

---

(١) الدسوقي: ٦٢.
(٢) شيخو: ١: ٨.
(٣) م.ن. ١: ٧٣ـ٧٥.
(٤) رياض شمس الدين: حرية الطباعة ٢: ٥٩٣.
(٥) طرازي: ١٨.

wadod.org

فغدت المطبوعات التركية الحديثة تنافس مطبوعات أوربا من حيث الكم ومن حيث الكيف[١].

أحمد فارس الشدياق

أما الشدياق صاحب مطبعة الجوائب (بالأستانة) فهو فارس بن يوسف بن منصور الشدياق لبناني، ولد بعشقوت (في منطقة كسروان) سنة ١٨٠٤م من أسرة مارونية عريقة لها ضلع في الحكم. وقد تعرضت لنكبات خاصة إذا علمنا بأنها عاشت في ظل زمن إقطاعي فحكام لبنان من الشهابيين لا سيما الأمير يوسف وابن أخيه بشير الكبير كانا من الجبابرة المتسلطين على الشعب، ممن لا يرحم معارضاً أو مخالفاً في رأي وكان حليفهما بطريك من سلالة بطاركة إقطاعيين[٢] وهذا ما دفع والد فارس إلى الهرب من قريته والانتقال بعائلته إلى الحدث في ساحل بيروت سنة ١٨٠٩م. ثم أرسل ابنه فارس إلى مدرسة عين ورقة المارونية ليتعلم فيها فتلقى الآداب العربية والسريانية وكانت هذه المدرسة قد أسسها البطريك يوسف أسطفان قبل الثورة الفرنسية ومجيء نابليون إلى مصر، وكانت تعلم اللغات الأجنبية فضلاً عن اللغة العربية والسريانية[٣].

وكان فارس منذ صباه ميالاً إلى قراءة كتب التراث العربي، فانكب على المطالعة في مكتبة والده. وكان في فطرته ميل إلى نظم الشعر حتى قيل أنه نظم منه شيئاً وهو في العاشرة من عمره.

ولما توفي والده لم يترك لعائلته مالاً يدبرون به أمرهم لذلك اضطر فارس إلى تعلم النسخ الجيد. وأخذ يعمل بنسخ الكتب ليعيش من أجرتها. وهذا ما مكنه من الاطلاع على الكتب وإشباع رغبته في تتبع الكلام الفصيح[٤].

وشاءت الصدف أن يتحول أخوه الأكبر أسعد الذي كان يرعاه إلى المذهب الإنجيلي (البروتستانتي) بعد أن كان كاثوليكياً مما عرضه إلى اضطهاد أهله ورؤساؤه من أتباع الطائفة المارونية. ثم إلى سجنه في أحد الأديرة ليموت قهراً. فكانت نكبة لعائلته جديدة وهذا مما أدى به إلى المجاهرة بنقدهم وبيان سوء فعلهم. ولما شعر بأنهم غير تاركيه وأنهم جادون في أثره لجأ إلى المبشرين الأمريكان (البروتستانت) فأحسنوا لقاءه وبعثوا به إلى مصر ليعلم أعضاء بعثتهم فيها اللغة العربية[٥].

وقد كان فراره من لبنان إلى مصر خيراً وبركة على اللغة العربية وآدابها[٦] فقد أمضى زمنه في مصر بين درس وتدريس حتى تمكن من اللغة العربية وعلومها ولم يزل يتدرج في ملازمة كبار رجالها حتى أصبحت له منزلة في بطانة محمد علي باشا فولاه تحرير الوقائع المصرية التي تولى تحريرها جملة من الأدباء. وكانت تحرر بالعربية والتركية ثم اقتصر تحريرها بالعربية. وقيل أنه

---

(١) البستاني: دائرة المعارف ١٠: ٤٢٨.
(٢) مارون عبود: صقر لبنان: ٧، ٢٧.
(٣) مارون عبود: صقر لبنان ٥٢.
(٤) انظر الساق على الساق ١: ٣٣، ٣٤، ٣٧، البستاني ١: ٤٢٨.
(٥) البستاني ١٠: ٤٢٨، ٤٢٩، عمر الدسوقي ١: ٧٧.
(٦) مارون عبود: ٢٧.

wadod.org

تعرف على الشيخ محمد شهاب الدين (١٢٤٧هـ/ ١٨٥٧م) محرر الوقائع المصرية[١] فلازمه وقرأ عليه طائفة من كتب اللغة والأدب. وقرأ على غيره كتباً في المنطق والنحو حتى تمكن من سائر علوم العربية وأخذ يكتب في الوقائع المقالات بأسلوب جديد لم يألفه المصريون من قبل وهو الأسلوب المرسل الرصين[٢].

ثم غادر الشدياق مصر إلى جزيرة مالطة سنة ١٨٣٤م لخدمة المبشرين حيث عهد إليه إدارة مطبعتهم وتصحيح مطبوعاتهم. وقد أقام في مالطة أربع عشرة سنة يدرس ويعرِّب. وقد طبع هناك بعض تآليفه مثل (الواسطة في معرفة مالطة) وكتاب (اللفيف في كل معنى ظريف) و (الباكورة في نحو اللغة الإنكليزية) وفي هذا المجال يذكر جرجي زيدان أنه «لا يكاد يوجد كتاب مطبوع في مطبعة مالطة إلا كان هو مؤلفه أو مترجمه أو مصححه»[٣].

ثم طلبت جمعية الكتب المقدسة بلندن ليعاونها في ترجمة التوراة إلى العربية. فسافر إلى لندن وسكن في إحدى القرى المجاورة. ثم زار باريس وأتقن خلال ذلك اللغتين الإنكليزية والفرنسية.

واتفق أن زار أحمد باشا (باي تونس) فرنسا والشدياق فيها فنظم له قصيدة مدحه بها، فأرسل إليه الباي يستقدمه إلى تونس. وهكذا ذهب إلى تونس وأقام فيها وأصدر (جريدة الرائد التونسي) وفي تونس أعلن إسلامه وسمي الشيخ أحمد فارس الشدياق.

وقبل إقامته بتونس كتب الشدياق قصيدة مدح فيها السلطان عبد المجيد على أثر انتصار الدولة العثمانية على الدولة الروسية. وهي قصيدة تقع في زهاء مائة وخمسة وثلاثين بيتاً فحسنت لدى السلطان فاستدعاه إلى الأستانة. وعند حلوله بها ألحقه السلطان بديوان الترجمة وتولى الإشراف على التصحيح بدار الطباعة.

وفي الأستانة أنشأ جريدة (الجوائب). ويقال إن الخديوي إسماعيل (حاكم مصر) هو الذي أشار عليه في أثناء زيارته للأستانة بذلك. وكان الخديوي معجباً به. فأنشأها سنة ١٨٦٠ وقد اشتركت فيها الحكومة المصرية بألفي نسخة[٤]. وقد أرخ الحاج حسين بيهم البيروتي تاريخ صدورها المذكور بهذه الأبيات[٥].

إن الجوايب بالأخبار قد شهدت ... بالسيف في كل ميدان لمعربها
من كل فاكهة زوجين قد جمعت ... فطاب واردها من طيب مشربها
تجوب دوماً جهات الأرض جالبة ... أخبار مشرقها أرخ (لمغربها)
سنة ١٢٣٨هـ

وقبل أن يمتلك الشدياق مطبعته الخاصة كان يطبع جريدته الأسبوعية السياسية في المطبعة

---

(١) الزركلي ٦: ٢٦٣.
(٢) البستاني ١٠: ٤٢٨، ٤٢٩، عمر الدسوقي ١: ٧٧.
(٣) جرجي زيدان: مشاهير الشرق: ٢٢٢.
(٤) طرازي ١: ٩٦، ٩٧، البستاني ١٠: ٤٢٩. عمر الدسوقي ١: ٧٨.
(٥) طرازي ١: ٦١.

wadod.org

السلطانية مدة عشر سنوات ثم أنشأ عام ١٨٧٠ مطبعته الخاصة وزودها بأحدث أدوات الطباعة. ولم يمض وقت طويل على تلك المطبعة حتى غدت من أشهر مطابع الأستانة والشرق العربي. والتي أخذ يطبع فيها ما كان يختاره من كتب التراث العربي المخطوطة التي كانت تزخر بها مكتبات تركيا فضلاً عن جريدته[١]. وكان يقرأ جريدة الجوائب سلاطين العرب وملوكهم وأمراؤهم وعلماؤهم في تركيا ومصر والشام وتونس والجزائر والمغرب وزنجبار وجاوا والهند وغيرها.

وقد ساعد السلطان عبد العزيز على توسيع نطاق هذه الجريدة لبث فكرة (الخلافة الإسلامية) بين المسلمين المنتشرين خارج الإمبراطورية العثمانية.

وكان الشدياق يحصل على المساعدات المالية فكان يتلقى من السلطان عبد العزيز خمسمائة ليرة عثمانية سنوياً. كما كان يتلقى من خديوي مصر إسماعيل باشا. ومن باي تونس محمد الصادق باشا لأجل خدمة مصالح بلديهما[٢].

وقد وصف خلال إدارته لمطبعة الجوائب أنه كان مديرها وروحها العاملة وإن المكتبة العربية مدينة لأحمد فارس الشدياق ومطبعته بتلك الثروة الأدبية التي كانت مخطوطات مدفونة في خزائن مكتبات الأستانة لا يعرف الناس عنها شيئاً حتى هيأ الله لها مطبعة الجوائب التي طبعتها ونشرتها في الأستانة وكافة الولايات العثمانية. وقد امتازت طبعات تلك المطبعة عن مثيلاتها بجمال الحروف والدقة وندرة الأخطاء المطبعية[٣].

ومما قيل عن الشدياق وصحيفة الجوائب إنه كان من أوائل الذين ملئت قلوبهم بغضاً للأجانب. فهم عن حق أغراضهم الدنيئة وسلقهم بلسان حاد. وحرض على إخراجهم من ديار العرب والشرق. وقد خص مصر بحب وفير. وكان مثلاً في الصحافة انتهجه المصريون وحذوا حذوه[٤].

ومما قيل في جريدة الجوائب أيضاً أن الشدياق أودع فيها من فنون النثر وعيون الشعر وضروب السياسة ما رواه لسان الحمد وتناقلته برد (جمع بريد) الشرق والغرب. وكان في سياسة الشرق مرجعاً وحجة سعى إليه المجد والثراء. وخطب وده الأمراء والعلماء. وكافأته الدولة العلية بالألقاب والأوسمة. ثم تخلى عن إدارة الجوائب لولده سليم وهو في أعقاب عمره[٥].

وفي عام ١٨٨٤م أوقف جريدته وارتحل إلى مصر حيث أكرمه الوزراء والعلماء فأقام فيها، وكان في أثناء إقامته هناك قد مثل لدى الخديوي توفيق الأول الذي أثنى على خدماته للغة العربية.

ثم عاد الشدياق إلى الأستانة ولم يفارقها حتى حل به القضاء المحتوم في ٢ أيلول سنة

---

(١) طرازي ١: ٦١.
(٢) م. ن.
(٣) صابات: ٢٩.
(٤) الدسوقي: ١: ٨٦.
(٥) أحمد حسن الزيات: ٤٧١.

wadod.org

١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م وهو في السنة الرابعة والثمانين من عمره. ونقل جثمانه بعد تسعة أيام بناء على وصيته إلى لبنان ليدفن في الحازمية حيث مسقط رأسه. فجرى له تشييع فخم[١].

وقد كان الشدياق سباقاً في ميدان الصحافة، أحد المؤسسين لها، فإليه بنسب تسميته الجريدة باسمها، وما أن أصدرها حتى ملأت شهرتها الشرق والغرب فصدرت أمهات جرائد أوربا عن رأيها في السياسة الشرقية. ولقبت صاحبها بالسياسي الشهير والصحافي الذائع الصيت[٢].

لقد جاء الشدياق إلى الصحافة العربية في طفولتها، وكان مرضعاً لها ومربياً، لغة وسياسة وأدباً فاعترضته مشاق كثيرة لا يجدها كتاب صحف اليوم. كان عليه أن يعرف ألفاظاً كثيرة لمسميات عديدة. كما إنه قام بترجمة القصص والحكايات الظريفة وإذاعتها في جوائبه. فكان ينقل إلى أبناء الأمة العربية عن الجرائد الفرنسية والإنكليزية الطرائف والملح والأخبار عما كان جديداً. ولهذا أصبحت جريدته مدرسة للأجيال[٣].

ومما كان في مقام الريادة في الصحافة العربية كتابته المقالة الأدبية وهو لون أدبي ما كان معروفاً عند العرب من قبل فأخذ الشدياق يحبر المقالات لجريدته الأسبوعية. ثم تهافت على هذا اللون من الأدب جميع محرري الصحف، فانتشر في أدبنا وظل سائداً حتى يومنا هذا[٤]. فكان عمل الشدياق بإصداره الجريدة وبنشره بعض كتب التراث العربي في بناء النهضة العربية المعاصرة[٥]. ولهذا رثته وكالات الأنباء عند إعلان خبر وفاته مثل وكالة رويتر، وجرائد الشرق والغرب، وقرضته بما يستحق من الثناء[٦].

مؤلفات الشدياق[٧]:

١ ـ سر الليالي في القلب والإبدال:

وهو كتاب لغوي تحليلي يقع في مجلدين يحتوي على تبيين معاني الألفاظ واتساق وضعها وهو مبني على ثلاثة مقاصد:

الأول: سرد الأفعال والأسماء التي هي أكثر تداولاً وأشهر استعمالاً ونسقها بالنظر إلى التلفظ بها لإيضاح تناسبها وإبداء تجانسها وكشف أسرار معانيها وأصل مدلولاتها.

الثاني: إيراد الألفاظ المقلوبة ويندرج في ذلك الألفاظ المترادفة.

الثالث: استدراك ما فات صاحب القاموس من لفظ أو مثل أو إيضاح عبارة أو نسق مادة.

---

(١) مارون عبود: ٩٨.
(٢) م.ن.
(٣) مارون عبود: ١٣٢.
(٤) م.ن: ١٤٧.
(٥) م. ن: ٧٤.
(٦) طرازي: ٩٨-٩٩.
(٧) انظر سركيس ١: ١١٠٤، ١١٠٥، الزيات: ٤٧٢ وسترد أسماء مؤلفات الشدياق ضمن قائمة ما طبع في تركيا الملحقة بهذا البحث.

wadod.org

وقد أضاف إلى الكتاب نقدين أخذهما من كتابه (الجاسوس على القاموس) أحدهما فيما ذكره صاحب القاموس في غير محله المخصوص به، والثاني فيما لم يذكره مطلقاً. وقد اشتهر عند الأدباء والمؤلفين.

وقد نوّه بهذا الكتاب في جريدة الجوائب لكي ينتدب أحدهم لطبعه. ثم انبرى لطبعة من بعد الوزير التونسي خير الدين على نفقته. وكان طبعه في الأستانة سنة ١٢٨٤هـ[١].

٢ ـ الجاسوس على القاموس:

ألفه نقداً لكتاب القاموس المحيط، وهو الكتاب الذي أعجب به الشدياق واستشهد به في كتبه وتناوله بالدراسة وخصص له هذا الكتاب. وقبل الكلام على الجاسوس لا بد من الكلام على القاموس المحيط ومؤلفه. وهو مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزأباذي الشيرازي المتوفي سنة ٨١٧ هـ/ ١٤١٥م والمولود بكارزين بلدة بفارس سنة ٧٢٩هـ. ثم جال في العراق فدخل واسط وبغداد والشام ثم القاهرة ودخل بلاد الروم (تركيا)، والهند ولقي في هذه البلاد الجم الغفير من علمائها فأخذ عنهم. ثم دخل زبيد باليمن في رمضان سنة ٧٩٦هـ وتولى قضاء اليمن كله. واستمر بزبيد عشرين سنة ثم زار مكة مراراً وجاور بها. وأقام بالمدينة المنورة وبالطائف. ثم عاد إلى اليمن فتوفى بزبيد وهو على القضاء سنة ١٨١٦ و٨١٧هـ[٢].

وقد استغرق تأليف كتاب (القاموس المحيط) نحو ثلاثين عاماً ما بين سنتي ٧٦٨ـ٧٩٦هـ وتم له ذلك في مكة قبل رحيله إلى اليمن. وكان مجيئه إلى زبيد كما مر سنة ٧٩٦هـ وقدم نسخة من كتابه هدية للملك الأشرف إسماعيل بن عباس الرسولي المتوفي سنة ٨٠٣هـ[٣].

ومنهج هذا القاموس هو السير وفق نظام الحرفين الأخير فالأول فالحشو أي نظام الباب والفصل والتي سار بهذا النظام جملة من المعاجم العربية كصحاح الجوهري، وعباب الصاغاني، ولسان العرب لابن منظور، وتاج العروس للزبيدي. وأما اسمه (القاموس المحيط) فإنه يريد به البحر الأعظم. وقد شرح الفيروزأباذي منهجه في مقدمة كتابه ومما ذكره قوله «وألفت هذا الكتاب محذوف الشواهد، مطروح الزوائد، معرباً عن الفصيح والشوارد. وجعلت بتوفيق الله زفراً في زفير، ولخصت كل ثلاثين سفراً في سفر، وضمنته خلاصة ما في العباب والمحكم[٤]. وأضفت إليه زيادات من الله تعالى بها وأنعم ورزقنيها عند غوصي عليها في بطون الكتب الفاخرة الداماء الغطمطم».

وقال عن طريقة علاجها «وإذا تأملت صنيعي هذا وجدته مشتملاً على فرائد أثيرة وفوائد كثيرة...» وهذه الطريقة التي ذكرها لم يكن الوحيد الذي سلكها بين أصحاب المعاجم بل قد شاركه فيها آخرون. ثم أنه بين القواعد التي سلكها للاختصار فقال «ومن بديع اختصاره وحسن

---

(١) الشدياق: سر الليالي: ٦، ٧.

(٢) الهوريني: القاموس المحيط ١: ٣، ٤ (من المقدمة).

(٣) د. حسين نصار: المعجم العربي نشأته وتطوره ٢: ٥٧٥.

(٤) المحكم تأليف ابن سيرة، والعباب تأليف الصاغاني (٦٥٠هـ).

wadod.org

ترصيع نقصاره. . .» وقد بين أين كان اختصاره في الكتابة واللفظ أو الرمز بالحروف فقط.

وكان من دوافع تأليفه كتاب القاموس إنه وجد كتاب الصحاح للجوهري قد تداوله الناس، واعتمد عليه المدرسون، إلا أنه «وهو جدير بذلك غير أنه فاته نصف اللغة أو أكثر، أمّا بإهمال المادة أو بترك المعاني الغريبة النادرة. فأردت أن يظهر للناظر بادىء بدء فضل كتابي عليه، فكتبت بالحمرة المادة المهملة لديه. وفي سائر التراكيب تتضح المزية بالتوجه إليه». ولما كان التمييز بالحمرة متعسراً في الطبع في العصر الماضي فقد ميزت هذه الألفاظ التي أهملها الجوهري بخط ممتد من فوقها[١].

أما الدراسات حول القاموس المحيط فكثيرة ومتنوعة حتى لقد اختلط كثير منها على القدماء أنفسهم فجعلوا الحاشية شرحاً، والشرح نقداً أو استدراكاً وخلطوا في عناوين كثير منها بسبب ما راعته من سجع قرب بينها جميعاً ويمكن جعل هذه الدراسات كالآتي: شرح مصطلحات القاموس، شرح مقدمته، تهذيبه، الاستدراك عليه، نقده، حواشي عليه، مختصرات فضلاً عن كثير من الكتب التي ترجمته إلى الفارسية والتركية[٢].

إن كتاب الجاسوس على القاموس للشدياق واحد من الدراسات النقدية التي كتبت حول القاموس المحيط، وقد طبعه في الأستانة بمطبعة الجوائب سنة ١٢٩٩هـ على نفقة محمد صديق خان بهادر ملك بهوبال.

وكان قصد الشدياق من تأليفه اتخاذه مثالاً للمعاجم العربية عامة، التي كانت بصورتها الراهنة من أسباب رمي اللغة بالانحطاط والتأخر وعدم ملائمة العصر الحديث وتفضيل اللغات الأجنبية عليها.

وللأديب مارون عبود رأي آخر في سبب تأليف الشدياق كتاب الجاسوس ألا وهو نقد كتاب (محيط المحيط) أيضاً الذي اعتمد مؤلفه البستاني على القاموس وبذلك أصاب عصفورين بحجر واحد[٣].

وكان القاموس المحيط أشهر معجم بين يدي أهل العصر، فهاجمه الشدياق بعنف ليبين أن العيب منه وأمثاله لا من اللغة العربية. واتخذ من هذا الهجوم وسيلة للإنابة عن حاجتنا إلى معجم حديث، يسهل البحث فيه، ويسير على نمط جديد من العلاج.

وأكد الشدياق أن منهجه قائم على القصد في النقد، وترتيب أقواله على نقود مختلفة عدتها أربعة وعشرون وخاتمة يفرد كلا منها بنوع خاص فلا يكرر نقداً منها في نوعين أو أكثر إلا اضطراراً حين يسوقه. وعلى عدم الاستقصاء في كل نقد والاكتفاء باختيار نماذج فحسب، واعتماده على نقوده على نقول وثق منها بعد أن رآها في غير واحد من كتب اللغة[٤].

---

(١) الفيرزأباذي: مقدمة القاموس المحيط.
(٢) د. حسين نصار ٢: ٦٠٠، ٦٠١.
(٣) مارون عبود: صقر لبنان: ١٤٢.
(٤) د. حسن نصار ٢: ٦١٥.

wadod.org

والكتاب ذخيرة غنية بالمعلومات عن القاموس المحيط وكثير غيره من المعجمات وأصحابها وخصائصها وعيوبها. ولا يعيبه غير الاضطراب الذي عرا بعض فصوله وتكريره الكلام في الأمر الواحد في أكثر من فصل[١].

ولما كان الشدياق سباقاً في ميدان الدراسة اللغوية لهذا تناسى بعض النقاد أمر الاضطراب والتكرار وعدوه رائداً وأشادوا به.

٣ ـ كشف المخبا عن فنون أوربا:

وهو وصف شامل لسياحته في البلاد الأوربية. طبع أولاً في تونس، ثم في الأستانة في مطبعة الجوائب سنة ١٢٩٩هـ[٢] فصل فيه أمر سياحته في بلاد الإنكليز وفرنسا وغيرها من الأقطار الأوربية. فكان من جملة وصفه لبلاد الإنكليز إنه وصف آدابهم وأحلامهم وتاريخ تمدنهم وسر تقدمهم بأسلوب شائق[٣].

ومما ذكره عن عمله بإنكلترا (وهو ترجمة التوراة) قال: «ثم عدت إلى كمريهج وبعد أن انتهيت من ترجمة التوراة وذلك في أقل من عشرين شهراً. فسرت إلى لندرة وفاوضت كاتب الجمعية في ذلك...» أي في أن يقيم في باريس وترسل إليه تجارب طبع التوراة لتصحيحها[٤].

ثم ذكر أقدم نسخ التوراة، وأقدم طبعاتها لدى الأوربيين. ثم قال: «ووجدت في بعض الكتب ولست منه على ثقة أن التوراة ترجمت إلى العربية في القرن الخامس[٥]».

ولو رجع الشدياق إلى ابن النديم لوجد أن الفيومي أحد علماء اليهود قد ترجمه قبل زمن ابن النديم[٦].

وكانت كتابته في هذا الكتاب سلسلة مرتبطة المعاني ببعضها مع التوسع في التعبير وتتبع الموضوع في جزئياته مع مراعاة الموضوع الأصلي والعودة إليه، ففي أثناء وصفه عادات أهل باريس مثلاً تطرق منها إلى ما يماثلها من عادات العرب والأتراك. فيذكر وجه الخطأ هنا أو هناك وما هو سبب هذه العادة وربما جاء بتاريخها ومن جاء بها حتى يخال لك أنه خرج عن الموضوع ثم لا نشعر إلا وقد عاد بك إليه بغير تكلف. وكل ذلك بغاية السلاسة والطلاوة مع البلاغة[٧]. وقد عد مارون عبود هذا الكتاب وكذلك كتاب (الواسطة في معرفة أحوال مالطة) كتابي أدب[٨].

وقد يستطرد ليذكر أموراً أخرى لها علاقة بأوربا أحياناً مثل كلامه عن إسبانيا وحضارة المسلمين فيها. وقد نقل عن بعض المؤلفين (ولم يذكر اسمه) إن البابا سلفستر الثاني وكان

---

(١) م. ن ٢: ٦١٢.
(٢) جرجي زيدان: مشاهير الشرق: ٢٢٣.
(٣) الدسوقي ١: ٧٩.
(٤) الشدياق: كشف المخبا: ٢١٤.
(٥) الشدياق: كشف المخبا: ٢١٥.
(٦) ابن النديم: الفهرست: ٤٠، ٤١.
(٧) جرجي زيدان: مشاهير.
(٨) مارون عبود: ٧٤.

wadod.org

يعرف أولاً باسم جربرت إنه أخذ العلم من العرب. وكانت ولادته سنة ٩٣٠م ثم انتخب بابا في سنة ٩٩٩م وكان ماهراً في علم المساحة وجر الأثقال والفلك وهو الذي بث رقم الحساب العربي في أوربا. وأول من عمل ساعة ذات رقاص[١] وبعض استطراداته لا علاقة لها بأوربا كحديثه عن نفسه وأنه أهدى إليه نسخة من ترجمة كتاب (كلستان) فتصفحه وتأمله فلم يجده مبتكر المعاني ما أوجب احتفال العجم به هذا الاحتفال العظيم إذ أنه عندهم بمنزلة (مقامات الحريري) عند العرب، غير أن عربيته فصيحة. وإنه عمل على منواله حكايات (نحو أربع صفحات) في أثناء رجوعه إلى لندن[٢].

٤ ـ الواسطة في أحوال مالطة:

وهو كتاب صغير يقع في ٦٦ صفحة. وهو وصف لهذه الجزيرة وأراضيها وأهلها وحاضرها وماضيها. وأصل لغة أهلها وبين أن العربية كانت لغة أهلها إلا أنها شيبت بلهجات الغزاة الفاتحين[٣].

وعلى جار عادته في الاستطراد وجدناه في مقدمة هذا الكتاب يذكر أن زيارته لإنكلترة جعلته يقارن بين ما يراه فيها وبين ما كان موجوداً في حينه إلى البلاد العربية فهناك حسنات تخلو منها البلاد العربية كتقدم الصناعات وانتشار التعليم، وارتقاء مستوى المعيشة إلا أنه يحمد للبلاد العربية المحافظة على الأعراض، وعلى خصلة الكرم اللتين تخلوان منها أوربا[٤].

٥ ـ غنية الطالب ومنية الراغب:

طبع في الأستانة بمطبعة الجوائب مرتين في ١٢٨٨هـ و١٣٠٦هـ، وهو كتاب في النحو والصرف وحروف المعاني. وقد أثار هذا الكتاب ضجة في النوادي الأدبية إذ ذهب الشيخ سعيد الشرتوني لتخطئة الشدياق في كتيب ألفه للرد عليه سماه (السهم الصائب في تخطئة غنية الطالب). ثم انبرى الشيخ إبراهيم الأحدب المشهور للرد على الشرتوني في كتيب عنوانه (رد السهم عن التصويب وإبعاده عن مرمى الصواب بالتقريب)[٥].

٦ ـ اللفيف في كل معنى طريف:

وهو كتاب أدب ومطالعة وتعليم القراءة وتمرين الخواطر في المراتب فيه أمثال قديمة وحديثة ونوادر ـ وهو في رأي فنديك من أحسن مؤلفاته طبع في القسطنطينية سنة ١٣٠٠هـ في ٢١٥ صفحة[٦].

٧ ـ خبرية أسعد شدياق:

وهو حكاية ما جرى لأخيه أسعد من الاضطهاد ـ مالطة ١٨٣٣م في

---

(١) الشدياق: كشف المخبا: ٢١٧.
(٢) الشدياق: كشف المخبا: ٢٨٥.
(٣) الدسوقي ١: ٧٢١.
(٤) الشدياق: مقدمة في كتاب الواسطة.
(٥) مارون عبود: صقر لبنان: ٧٦.
(٦) فنديك: ٤٠٦.

wadod.org

٥٢ صفحة[١].

٨ ـ شرح طبائع الحيوان:

معرب، مالطة، ١٨٤١م في ٣٣٩ صفحة[٢].

٩ ـ ديوان شعر كبير:

ذكر البستاني أن الشدياق صوره بمقدمة على أسلوب جديد شائق. وقد طبعها في آخر حياته، وقد أهداه نسخة منها، فوجدها البستاني فريدة في بابها تتضمن نقداً للشعر لم يجسر عليه أحد من كتاب العرب. وإنه لم يشأ أن يذيعها قبل الفراغ من طبع الديوان ولكن المنية حالت دون مراده[٣].

وقد ذكر جرجي زيدان بأن الديوان يشتمل على اثنين وعشرين ألف بيت في أغراض مختلفة[٤]. في حين أن المطبوع من ديوانه سمي (نبذة) وهذا يوضح كونه بعض ما جاء في الديوان من شعره. وقد تم طبعه في الجوائب بالأستانة سنة ٢٩١ هـ. في ٢١٩ صفحة.

وإذا استعرضنا ما جاء في هذه (النبذة من ديوان العالم العلامة) فسنجد أنه لم يراع ترتيب القصائد وفق حروف القافية. وأن أغلب ما ورد من المدائح التي قالها في رجالات الدولة العلية كالسلطان عبد المجيد خان حيث بدأ هذه النبذة بقصيدة مدح له، ثم قصائد في مدح السلطان عبد العزيز[٥] ثم الوزير فؤاد باشا[٦]. وقصيدة في مدح الخديوي إسماعيل[٧]. وقصائد مدح لبعض الشخصيات[٨] أو قصائد المطارحات مع شعراء عصره[٩].

١٠ ـ السند الراوي في النحو الفرنساوي.

١١ ـ الروض الناظر في أبيات ونوادر.

١٢ ـ النفائس في إنشاء أحمد فارس.

١٣ ـ السلطان بخشيش.

١٤ ـ التقنيع في علم البديع.

١٥ ـ منتهى العجب في خصائص لغة العرب: أتلفه الحريق قبل طبعه.

١٦ ـ المرآة في عكس التوراة. غير مطبوع

١٧ ـ لا تأويل في الإنجيل: غير مطبوع.

١٨ ـ كنز الرغائب في منتخبات الجوائب: وهو مقالات وأخباراً استخرجت من جريدة

---

(١) سركيس١: ١١٠٥.
(٢) م. ن ١: ١١٠٥.
(٣) البستاني: دائرة المعارف ١٠: ٤٣٠.
(٤) جرجي: مشاهير الشرق ٢٢، ٢٣١.
(٥) ص ١٠، ٩٨، ٩٩.
(٦) ص ١٩.
(٧) ص ٥٠ وانظر ٩٣.
(٨) ص ٥٨، ٦٦، ٦٧، ١٢١، ١٤٩، ١٦٢، ١٨٥.
(٩) ص ٥٩.

wadod.org

الجوائب وطبعت في سبعة مجلدات مرتبة على هذا الشكل:

- الجزء الأول: ويشتمل على ما في الجوائب من الفصول اللطيفة والمقامات الظريفة والمقالات الأدبية ويقع في ٢٥٥ صفحة.

- الجزء الثاني: يحتوي على تفصيل ذكر حرب جرمانيا (ألمانيا) مع فرنسا من أولها إلى آخرها ويقع في ٢٥٦ صفحة.

- الجزء الثالث: يشتمل على بعض القصائد التي نظمها محرر الجوائب في الأستانة ويقع في ٣٢٠ صفحة.

- الجزء الرابع: يشتمل على القصائد التي نظمها أفاضل العصر من العلماء والأدباء في مدح الجوائب ويقع في ١٧٠ صفحة.

- الجزء الخامس: يشتمل على جميع ما في الجوائب من الحوادث التاريخية والوقائع الدولية التي حدثت في الدولة العثمانية من سنة ١٢٧٧ هـ إلى سنة ١٢٩٣ هـ وفي الدول الأجنبية. ومن جملتها الأوامر والفرامين السلطانية وغير ذلك من المعاهدات التي صدرت في الخطوب الشهيرة. ويقع في ٣٦٠ صفحة.

- الجزء السادس: يشتمل على ما في الجوائب من الحوادث التاريخية والوقائع الدولية ومن جملتها الأوامر والفرامين السلطانية التي صدرت في الخطوب الشهيرة. وغير ذلك من الفوائد التي يحتاج إليها كل أديب أريب ويرتاح إليها كل مؤلف لبيب.

- الجزء السابع: يشتمل على ما في الجوائب من الحوادث التاريخية والوقائع الدولية ومن جملتها الأوامر السلطانية التي صدرت في الخطوب الشهيرة، وغير ذلك من الفوائد من سنة ١٢٩٥هـ، إلى غرة ربيع الأول سنة ١٢٩٨هـ ويقع في ٣٩٦ صفحة[١].

الساق على الساق في ما هو الفارياق أو أيام شهور وأعوام في عجم العرب والأعجام[٢] والفارياق كلمة نحتها من اسمه فارس الشدياق وأطلقها على نفسه، وقد أنشأ هذا الكتاب في أثناء سياحته في أوربا قال: في مقدمته «بأنّ جميع ما أورده في كتابه إنما هو مبني على أمرين:

أولهما: إبراز غرائب اللغة ونوادرها، يندرج تحت جنس الغريب، نوع المترادف والمتجانس، وقد ضمنت منهما هنا أشهر ما تلزم معرفته، وأهم ما تمس الحاجة إليه على لفظ بديع. ولو ذكر على أسلوب كتب اللغة مقتضياً على العلائق لجاء مملاً وقد راعى في سرده مرة ترتيب حروف المعجم، ومرة نسقته بفقر مسجعة وعبارات مرصعة، ومن ذلك القلب والإبدال. ومنها إيراد ألفاظ متقاربة والمعنى من حرف واحد من حروف المعجم. ثم تناول خصائص الحروف.

والأمر الثاني: ذكر محاسن النساء ومذامهن فمن هذه المحاسن ترقي المرأة في الدراية

---

(١) طبعت كلها في الجوائب من سنة ١٢٨٨هـ إلى سنة ١٢٩٨هـ وقد وردت في آخر كتاب الواسطة مع قائمة مطبوعات الجوائب. وأعاد سركيس ذكرها ١: ١١٠٦.

(٢) طبع الكتاب في باريس ١٢٧٠هـ/١٨٥٥م، وفي القاهرة - مطبعة الفنون، وطبعة مهذبة في بيروت ١٩٨٢.

wadod.org

والمعارف بحسب اختلاف الأحوال عليها كما أثرت عن الفارياقية (أي زوجته) «. . . ومن تلك المحامد أيضاً حركات النساء الشائقة وضروب محاسنهن المتنوعة التي لم يتصور منها شيء إلا ذكرته في هذا الكتاب لا بل قد أودعته أيضاً معظم خواطرهن وأفكارهن وكل ما اختص بهنّ».

ثم تلا هذا التنبيه بقصيدة هي فاتحة الكتاب، وتقع في خمس صفحات وبعد مقدمته الطويلة التي سمّاها الفصل الأول من الكتاب الأول أخذ يذكر ترجمته الذاتية بادئاً بوالديه ونشأته وإرساله إلى كتاب القرية. ونقده بطريقة التدريس فيها والكتاب الديني الذي كان يحفظونه للصغار دون أن يفهموا منه شيئاً. كما تطرق لنقد رؤساء المارونية ليواصل بعد ذلك الكلام في الأغراض اللغوية.

فالكتاب يدور حول ثلاثة محاور رئيسية الأول حول وصف أوائل حياته ونشأته ووصف أسفاره[١]. والثاني التنديد بجماعة من الأكليروس لم يذكر أسماؤهم إلا رمزاً وتقبيح ما ارتكبوه من قتل أخيه أسعد[٢]. والثالث وهو إيراد الألفاظ المترادفة في اللغة في مجموعات كل موضوع على حدة كأسماء الآلات والأدوات وأصناف المأكول والمشروب والمشموم والمفروش والمركوب والحلى والجواهر، وأوصاف الرجال والنساء، وغير ذلك ما لا يتيسر وجوده في كتاب واحد وعلى أسلوب لم نشاهد مثله في العربية. ففي أثناء كلامه عن طفولته ذكر أنه ألبس عمامة كبيرة، وذات يوم أركبه أبوه مهرة فسقط منها فأصابته شجة، فانبرى يذكر عشرة أنواع من الشجات «القاشرة، والحارصة، والباضعة، والدامية، والمتلاحمة، والسحاق، والموضحة، والهاشمة، والمنقلة، والآمة، والدامغة». ج١ ص٢١.

وفي أثناء ذكرته لعودته إلى لبنان قادماً من مالطة، استقبلته نساء الجيران فوصف مجالسهن وقعودهن ومسألتهن له للاطمئنان عليه حيث كان غائباً عن بلده قال: «فمن قائلة مالك يا فاريان نحيلاً؟ ومن قائلة وقد صرت ضئيلاً، وأخرى ما لسحنتك قد سحلت. وغيرها ولطلعتك قد قبحت، ولأسنانك قد قلحت، وجبهتك لتحت، وأرنبتك فطمت، وأساريرك أزحت، ويشرتك فسحت، وشفتك تقرحت، وعنقك شقحت، وعينك لجحت، وقامتك تقنحت، وشعراتك تصوحت، وعجيزتك رسحت، وذقنك طحت، ولهجتك قحقحت. قال بعدها فتشاءمت من هذه القوافي. . .»ج٢ ص١٠١.

وفي أثناء كلامه عن سفره من الإسكندرية إلى جزيرة مالطة ذكر خوف زوجته من ركوب الباخرة البخارية فغضبت تلك الليلة وأدارت ظهرها، وهنا أفرغ الشدياق عبقريته في وصف القفا وعجيزة المرأة ج٢ ص٧٥. مما ذكرنا بعبقرية الجاحظ في ذكر أدق التفاصيل واستيعاب المعاني لما يتعرض للكلام عنه.

وقد أورد في الكتاب ألفاظاً وعبارات أراد بها المجون ولكنها تجاوزت حدوده وهذا ما أكده كل من درس الكتاب (الساق على الساق) فعبارة جرجي زيدان في هذا المجال: «. . .

---

(١) الساق ١: ١٩، ٢١، ٢٤، ٢٩، ٢: ٥٧، ١٠١.

(٢) الساق ١: ١٣٢، ١٣٥ـ١٣٩.

wadod.org

لا يتلوها أديب إلا ودّ لو أنها لم تمر في ذهن شيخنا ولا دونها في كتابه، تنزيهاً لأقلام الكتاب مما يخجل من قراءته الشباب فضلاً عن العذراء...»[١]. أما البستاني فيقول: «لولا إفاضته سامحه الله من فاحش المجون وتصلبه في تعزيز الوجهة التي يوجه إليها قلمه بصرف النظر عما عسى أن يكون فيها من المعايب لقلنا إن الإمام الذي يرجع إليه، والمثال الذي لا يعول إلا عليه»[٢].

وشيخو من الأدباء الذين لم يكن لهم ميل إلى الشدياق ولعله ممّن ناصبه العداء كشأن أولئك الذين ذكرهم مارون عبود، ففي مجال المجون نراه يقول: «... وفي أوربا صنّف كتاب الفارياق الذي لم يرعَ فيه جانب الأدب...»[٣].

أما مارون عبود أحد أشهر المعجبين به فنراه يحاول إيجاد مسوغ لمجونه في كتاباته بقوله: «وقد يكون حبّ المجون والأحياض من طبعه، ولكن مكتبة والده، التي عكف عليها صغيراً وهي حافلة بالكتب العربية القديمة، كالشكول والمستطرف وغيرها قد أنمت هذا الذوق ثم عزز هذا الميل فيه النسخ والقراءة فجاء صارخاً عجاجاً»[٤].

ومن خلال مقاربة الشدياق بمعاصريه من المجددين أمثال رفاعة الطهطاوي صاحب كتاب (تخليص الإبريز)، وعليّ مبارك صاحب كتاب (علم الدين) نجد ملاحظات الشدياق عن المرأة يستطرد فيها عمداً إلى الكلام عنها حتى لتبدو أنه يقحمه إقحاماً.

فقد وصف مفاتن المرأة بمفردات لغوية كثيرة تصورها مشتهاة على نحو مكشوف، وكتابه غاص بالفقرات الماجنة. وقد يتملكنا العجب حتى نطالع في ثنايا كتابه هذا، أمثال تلك الفقرات الماجنة التي تبلغ مبالغ الاستثارة الجنسية لكن العجب لا يلبس أن تخف حدته حين يعتذر عنه[٥].

كتاب (الساق على الساق) كتاب لغة كما ذكر مؤلفه في مقدمته إذ خصه لجمع غرائب اللغة ونوادرها. ثم لأكد ما ورد في اللغة من محامد النساء أو التعقيد الذي كان سائداً في عصره وقبل عصره ومن هنا عده الباحثون من المجددين في الإنشاء، ومن رواد الأدب العربي الحديث ولا سيما في كتابه السيرة الذاتية حيث عرض كتاب الساق لجوانب من حياة الشدياق.

وهكذا بدأ الباحثون يفتشون عن الأثر الذي أدى إلى هذا التغير في جيل الرواد أمثال الشدياق، فذهب هاملتن جب إلى التغريب أو الاتصال بالثقافة الغربية ولا سيّما الفرنسية. وإن هذا الاتجاه كان قوياً في سوريا (وضمنها لبنان) وكاد في المراحل الأولى أن يحدث خللاً في التوازن. وإن ألمع الشخصيات السورية في هذا الوقت المبكر هو الأديب الذائع الصيت أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤-١٨٨٧) الذي أتم تعليمه في سوريا، وعمل مدة من الزمن محرراً في

(١) جرجي زيدان: مشاهير الشرق: ٢٣٠.
(٢) البستاني ١٠: ٤٣٠.
(٣) شيخو ٢: ٨٦.
(٤) مارون عبود: صقر لبنان: ١٠٧.
(٥) د. يحيى إبراهيم: ٧٣.

wadod.org

الوقائع المصرية ثم قضى عدداً من السنين في بعض الأقطار الأوربية «. . . وإنه بعد أن استقر في الأستانة أصبح قطباً من أقطاب المحافظة، بعد أن كان في يوم من الأيام أحد دعاة التجديد»[١].

وهنا لا بُدّ من القول بأن المستشرق جب له بعض الحق في حصر سبب التأثير في جيل الرواد (لا سيما الشدياق) بالتغريب والأثر الفرنسي الذي لحقه في أثناء حياته في مصر التي كان سلطانها محمد علي قد أرسل بالبعوث إلى فرنسا. وجلب منها مطبعته. أما عد جب، الشدياق في الأستانة من أقطاب المحافظين فلم يؤيده أحد.

أما الأديب مارون عبود فيرى بان سبب النهضة التي حصلت بلبنان خاصة كانت بسبب مجيء المبشرين البروتستانت الذين أشعلوا ثورة فكرية «بين جماعة يكادون يعتبرون القاصد الرسولي (مثل البابا الكاثوليكي) أجنبياً عنهم ودخيلاً على طائفتهم». ثم هو يؤيد القائلين بأهمية أسفار الشدياق إلى مصر والغرب بقوله «كان هروبه من لبنان بسبب اعتقال أخيه، وفراره إلى مصر نعمة أتمها القدر على نهضتنا الحديثة فصحح لغة جريدة الوقائع المصرية، نواة الصحافة العربية. ولولا هجرته الأخرى إلى مالطة وأوربا لم يكتب كتابيه العظيمين (الواسطة) و (كشف المخبا) السابق ذكرهما. ثم قفى على أثرهما بكتابه الخالد (الساق على الساق)[٢].

ويعيد الأديب الباحث لويس شيخو السبب الحقيقي لنبوغ الشدياق عصاميته فهو ممن سعى بنفسه، فأوصله سعيه ودأبه إلى الشهرة «إن الذين اشتهروا فيه (القرن التاسع عشر) كانوا أبناء أنفسهم لم يتعلموا في مدارس منظمة، بل نبغوا بشغلهم الخاص تحت نظارة الأفراد الذين سبقوهم في دواوين الكتابة ودوائر الإنشاء»[٣].

ويجمع بعض الباحثين هذه التأثيرات المار ذكرها مجتمعة متداخلة وأنها أثرت في نشأة الشدياق ونبوغه. وهذا ما ذكره د. عمر الدسوقي بقوله: «أحمد فارس الشدياق من رواد النهضة الحديثة في الأدب، وممن سبق بفكره وقلمه وعلمه أبناء زمانه لكثرة ما قرأ وجرّب، ورأى بعينيه وسمع بأذنيه؛ لأنه جاب بلاداً عديدة، وعرف لغات شتى وأفاد مما رأى ومما قرأ وعرف. فكان نادرة من نوادر عصره»[٤].

ويرى د. يحيى إبراهيم أن سبب نبوغ رواد النهضة الأدبية العربية يعود إلى اطلاعهم على الآداب الغربية، وقد أتيح لهم ذلك من خلال سفرهم إلى بلاد الغرب، ويتمثل هذا التأثر بالغرب فيما كتب كل من رفاعة الطهطاوي في (تخليص الإبريز) وعلي مبارك في (علم الدين) وأحمد فارس الشدياق في (الساق على الساق)[٥].

ثم يقارن د. يحيى إبراهيم بين الشخصيات الثلاث فيرى أن الشدياق كانت شخصيته أوضح من صاحبيه إذ كان حديثه يدور دائماً حوا نفسه، ويطل علينا من خلال تنقلاته إلى مالطة

---

(١) هاملتن جب: دراسات في حضارة الإسلام: ٣٢١ـ٣٢٢.
(٢) مارون عبود: صقر لبنان: ٧٤.
(٣) شيخو ١: ٢٠.
(٤) الدسوقي ١: ٧٧.
(٥) د. يحيى إبراهيم: ٤٩.

wadod.org

وإنجلترا وفرنسا ليفصح عن آرائه وسخريته ونقيده الاجتماعي اللاذع لكثير من عادات الشرق والغرب على السواء متحدثاً في أغلب صفحات كتابه عن أحداث حياته وأحوال نفسه.

وهو بهذا قد تميز عليهما بأنه أمدَّنا بمعظم مراحل حياته منذ نشأته في قريته إلى وقت كتابة (الساق على الساق) في سنة ١٨٥٥م.

وكان أسلوبه يعتمد على الاستطرادات الكثيرة وعلى المترادفات اللغوية. ورغم أنه كان يتحدى الأسلوب الفصيح ويتجنب الإسجاع والمحسنات التي هاجمها في كتابه هذا. وأنه كان مولعاً بإظهار قدرته اللغوية، والانسياق وراء كثير من الاستطرادات التي كانت تخرج عن الاسترسال في السرد القصصي العذب الذي يتميز به الشدياق في (الساق على الساق) مما يعوق المتعة الأدبية ويقلل من تأثيرها. ومن أمثلة استطراداته تحت عنوان الفصل الحادي عشر ـ من الطويل العريض ـ أخذ في الكلام عن حياته الأولى وعودته إلى النسخ مرغماً... ثم تطرق إلى الكلام عن المعاني والبيان وما يندرج تحتها من الأسماء. وأنواع الاستعارات. ومعاناة مشايخ اللغة من قضايا النحو مثل قول الفراء: «أموت وفي قلبي شيء من حتى». وإن سيبويه مات وفي قلبه: «من فتح همزة أن وكسرها أشياء». ومات الكسائي: «وفي صدره من الفاء العاطفة والسببية والفصيحة والتفريعية والتعقيبية والرابطة حزازات». ومات اليزيدي «وفي رأسه من الواو العاطفة والاستئنافية والقسمية الزائدة والإنكارية صداع وأي صداع». ومات الزمخشري: «وفي كبده من لام الاستحقاق والاختصاص والتمليك وشبه التمليك والتعليل وتوكيد النفي وغير ذلك قروح». ومات الأصمعي: «وفي عنقه من رسم كتابة الهمزة غدة»[١].

ونراه يخرج عن السياق أيضاً لينقد طريقة الكتابة في زمنه والتي كانت تقليداً وامتداداً لكتابات الأقدمين بقوله: «ما زلنا نرى زيداً يلوك ما لفظه عمرو، وعمراً يمضغ ما قاله زيد. فقد سرى هذا الداء في جميع الكتاب...»[٢].

وفي آخر الكتاب وضع العنوان التالي (ذنب الكتاب) أنحى فيه باللائمة على المستشرقين الذين انتصبوا أساتذة للغة العرب وآدابهم مع أنهم لا يتقنوها إتقان العرب والمسلمين لها. بادئاً كلامه باقتباس أسطر قليلة من كلام الكسندر شرزكو في فاتحة كتاب في نحو اللغة الفارسية سنة ١٨٥٢م «إن أوربا حصلت على كل ما يلزم من علم اللغات الشرقية إذ فيها المكتبات والمدارس والعلماء الجديرين بإدارتها... وإنهم بهذا أصبحوا أساتذة العرب والفرس والهنود، وإنهم بحاجة لأن يتعلموا من الأساتذة الأوربيين...» فرد الشدياق على هذا الادعاء ببيان جهلهم بلغة العرب[٣].

ثم بين أن سبب سوء فهم المستشرقين للغة العربية هو عدم قراءتهم على المشايخ وإنما تطفلوا وتوثبوا توثباً. ومن تخرج فيه بشيء فإنما تخرج على القس حنا، والراهب توما،

(١) الشدياق: الساق ١: ٦٦.
(٢) م. ن ١: ٢٠٣.
(٣) الشدياق: الساق ٢: ٣١٩ـ٣٤١.

wadod.org

والخوري. . . ثم ذكر رأيه فيمن يتصدى لتدريس العربية أن يكون صادق النقل متثبتاً من الرواية، متحرجاً من التهافت على ترجيح ما استحسنه هو دون مراد المؤلف، مضطلعاً باللغة والنحو والصرف والأدب.

وعاب على المستشرقين أيضاً بعض ما ترجموه من لغتنا إلى لغاتهم كما عاب عليهم عزوفهم عن ترجمة كتاب جليل من لغتهم إلى اللغة العربية. وأورد من أسماء المستشرقين (دي ساس) وبعد أن أثنى على علمه، قال عنه: «إنه رحمه الله لا ينظم في سلك العلماء المحررين. فقد فاته أشياء كثيرة في الأدب واللغة والعروض. . .» ثم قال بعد ذلك بأنه لم يجد من بين جميع ما صنعوا باللغة العربية جديراً بالانتقاد سوى مقامات الحريري. ثم عمل جدولاً بأغلاط أبيات الشواهد في مقامات الحريري التي طبعت طبعة ثانية بعد وفاة (دي ساس) في ١٤ صفحة[١].

كان الشدياق من رواد التجديد في الأدب، وفي النثر خاصة، إلا أنه أنشأ أربع مقامات في كتاب الساق لعله أراد بها إظهار قابلياته على كتابة المقامة بدأها بقوله: «مضت علي برهة من الدهر من غير أن أتكلف السجع والتجنيس وأحسبني نسيت ذلك. . . فلا بد من أن أختبر قريحتي. . . وهكذا ذكر أربع مقامات في أماكن متفرقة من كتابه[٢]. مما جعل مترجميه يختلفون في سبب إيراده للمقامات. فالدكتور يحيى يقرر أن الشدياق لم يستطع أن يتحرر من طبيعة المقامة رغم كونه من رواد التجديد. . . إلا أن أسلوبه لم يكن تقليداً محضاً لأسلوب المقامة المتوارث بل كان له أسلوب مقصور عليه ابتدعه الشدياق هو أسلوب المقامة الساخرة[٣].

بينما كان رأي الأديب محمود تيمور أن الشدياق بكتابته المقامات يمثل استمرار لأجيال كتاب المقامات وقد أورد رأيه هذا في محاضرة بعنوان (القصة العربية) التي ألقاها في مؤتمر الدراسات العربية في الجامعة الأميركية. وقد رد عليه الأديب مارون عبود مظهراً أن ما كتبه الشدياق بشكل مقامات إنما أراد به السخرية والاستهزاء بكاتبيها[٤].

وتتميز شخصية الشدياق في كتابه (الساق) إنه كان كثير الانغماس في التجارب فيزج نفسه في كل بيئة يحل بها. ويخالطها مخالطة من يريد الاستزادة في المعرفة عن طريق الممارسة والتجربة. وليس عن طريق الملاحظة والمشاهدة والتأمل على نحو ما كان رفاعة في (تخليص الإبريز).

وكتاب (الساق على الساق) فيه تمثيل قوي لحياة الشدياق الثقافية والأدبية وتصوير حياته في البلاد التي انتقل إليها. وإن تخللها هذا الاستطراد اللغوي وفيه أيضاً تصوير لجانب من شخصية الشدياق وهو الميل إلى المجون.

على أنه رغم ذلك كله يبقى لكتاب (الساق على الساق) مكانة لغوية وأدبية وفكرية لا يغض منها، ما فيه من عبارات المجون. والشدياق مؤلفة رائد من رواد النهضة العربية الحديثة

---

(١) م. ن ٢: ٣١٩ـ٣٤١.
(٢) م. ن ١: ٨٠، ٢٢٢، ٢: ١٠٧ـ١١٦.
(٣) د. يحيى: ٧٠.
(٤) مارون عبود: جدد وقدماء: ١٢.

wadod.org

في اللغة والأدب في القرن التاسع عشر التي مهدت السبيل لما بلغناه في القرن العشرين من تقدم لا ينكر.

أما من الناحية الفنية فيرى د. يحيى بأن كتاب الساق ترجمة ذاتية تنقل لنا حياة صاحبها نقلاً أميناً منذ مولده في لبنان وأسفاره في أوربا، وتصور لنا جوانب حياته كلها، وكاتبها يجري فيها على طريقة التذكير ولا يراعى تسجيل المواقف والأحداث في رتابة زمنية مما يوقفنا على التدرج المتطور في شخصية كاتبها. وهي تبعد خطوات عن الترجمة الذاتية بمفهومها الفني لما يشيع فيه من استطرادات ومترادفات ومقطوعات شعرية تعيق المتعة الفنية. ولما فيه من مجانبة لتصوير الحقيقة مما يعمد إليها كاتبها من صنع كثير من المواقف والأحداث وتخيل مشاهد ومحاورات. ولما يمد إليه من نقد وسخرية للوقائع والشخصيات على نحو يتسم بالنظرة المتحيزة التي تبعد عن النظرة القريبة من الموضوعية. وهي إن أمدتنا بسيرة حياته بأسلوب يقوم على الصياغة القصصية المشوقة والسرد الأدبي العذب، فإنها مع ذلك لا تتوافر فيها العناصر التي تجعلها ترجمة ذاتية فنية[١].

منزلة الشدياق بين رواد النهضة الحديثة:

من خلال متابعة سيرة الشدياق عرفناه صحفياً مؤسساً لمؤسسة الصحافة، فصحيفته (الجوائب) أول صحيفة عربية طبعت بالأستانة وانتشرت في ربوع بلاد العرب والإسلام ناقلة أخبار الدول ومشاكل العصر ومستجداته، وكان قبل ذلك محرراً في الوقائع المصرية، وأما الدور الذي اضطلعت به الصحافة عند ظهور الجوائب فيقول هاملتين جب: «فلا نكون مبالغين مهما أمعنا في الإشادة به، فهذه الصحف لم تكن مدرسة لتدريب الكتّاب الناشئين وحسب، ولكنها أيضاً طوعت اللغة العربية بحيث تصبح أداة صالحة للتعبير عن الحاجات اليومية للصحافة»[٢].

كتب الشدياق في صحيفته المقالات الأدبية. وفي كتبه كما مر بنا بأسلوب حديث خالف فيه أسلوب من سبقه ومن عاصره من الأدباء والعلماء وكان من رواد كتابة السيرة الذاتية، وقد قال فيه الريحاني «إن أحمد فارس الشدياق يستحق أكثر من إشارة عابرة فهو على الرغم من جميع أخطائه أحد الشخصيات البارزة في الأدب العربي في القرن التاسع عشر فقد جمع في بردته بين اليازجي والحريري والمفكر الحديث ذي الموهبة الفذة»[٣].

وبلغ من إعجاب الأديب مارون عبود أن ألف كتاباً عن الشدياق سماه (صقر لبنان) مقاربة بـ(صقر قريش) وقال في تسويغ هذا العنوان «لم نسم أحمد فارس الشدياق صقر لبنان عبثاً واعتباطاً ولكنه استحق هذا الاسم؛ لأنه كما فر صقر قريش، ذاك شيد دولة عربية غربية وهذا شاد دولة أدبية وبنى النهضة الحديثة على أسس راسخة. وقد عزز رأيه هذا بما قام به مجمع فؤاد الأول من تخصيص جائزة مالية قدرها مارون عبود ألفي ليرة لبنانية لمن يكتب أحسن بحث عن

---

(١) د. يحيى إبراهيم: ٧٠ فما بعدها.

(٢) هاملتن جب: دراسات في حضارة الإسلام: ٣٢٥.

(٣) م. ن: ٣٩٦.

wadod.org

(أحمد فارس الشدياق، وعن أثره في اللغة والأدب، ووضع المصطلحات الحديثة)[١].

وأما الموازنة بين شاعريته وأدبه وما بينه وبين أهل عصره فإن الأديب المازني قد ذكر هذه الموازنة دون مبالغة مدلياً برأيه من الناحية الفنية بعد أن ذكر رأيه في الشدياق بقوله: «كان متضلعاً في فنون الأدب، متصرفاً في فنون الإنشاء من هزل ومجون ووعظ وأدب وسياسة. حافظاً لمفردات اللسان، بصيراً بمذاهب البيان يجيد النظم والنثر. وكان أسلوبه منسجم التراكيب، متساوق المعاني موفور الازدواج شديد الإطناب، كثير الاستطراد، ظاهر المبالغة.

أما شعره فأدنى رتبة وأقل جودة، وأضعف ابتكاراً من نثره، فهو في النثر مجدد، وفي النظم مقلد، وفي كليهما بالنسبة لأهل عصره سابق مجيد)[٢]. ونود الإشارة هنا إلى أن شعره بعضه مما تضمنه الديوان المنشور، وبعضه مما أورده في (الساق على الساق) وكانا في أغراض مختلفة فكان منها في الرثاء كقصيدته في رثاء ابنه[٣] أو في المدح كالقصيدة التي مدح بها السلطان عبد المجيد[٤]، أو القصيدة إلي مدح فيها عبد القادر الجزائري المشهور بالقلم والجهاد[٥]، وبعض القصائد الأخرى في أغراض شتّى، كقصائده في مدح باريس وفي ذمّها[٦]، أو في لاعبي القمار[٧] أو غير ذاك[٨].

كما أن له مقتطفات تفنن في نظمها كأن يلتزم إيراد كل بيتين بروي أو أن يجعل روي الشطر الأول والثاني، ثم الثالث على روي واحد وهكذا[٩] يستمر في القصيدة، وهناك أشكال أخرى. كما أن له قصائد غنائية[١٠].

أما الجوانب الإيجابية لهذا الرائد في غير الصحافة والأدب والشعر وتأليف الكتب ونشرها في مطبعته، فقد كان من دعاة التقدم والنهوض لأمة العرب فقد كان من أنصار المرأة قبل أن يهب الشاعر شوقي ويطالب بحريتها، وقبل قاسم أمين[١١]. فما أورده في كتاب (الساق) وإن جاء متفرقاً في أماكن متباعدة مثل وصف علاقته بزوجته وانسجامهما وتوادهما[١٢] كما نراه في موضع آخر يناقش مسألة جهل المرأة الشرقية، وقلة معرفتها بالرجل لعدم معرفتها بالقراءة، وقلة

(١) مارون عبود: رواد النهضة الحديثة: ١٥٦، وجدد وقدماء: ١٥٠.
(٢) أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي: ٤٧١.
(٣) الساق: ٢: ٢٣٧.
(٤) م. ن ٢: ٢٨٤ـ٢٨٩.
(٥) م. ن ٢: ٢٩٥.
(٦) م. ن ٢: ٢٨٩.
(٧) م. ن ٢: ٣٠٢.
(٨) م. ن ٢: ١٢٩.
(٩) م. ن ٢: ٤٣، ٤٠.
(١٠) م. ن ٢: ٣٤ـ٤٤.
(١١) مارون عبود: رواد النهضة: ١٥٧.
(١٢) الساق ٢: ٢٣.

wadod.org

بضاعتها من العلم[١]. وفي موضع ثالث وفي أثناء كلامه عن سفره إلى لندن ذكر أن على الإنسان العربي «إذا سافر وتعلّم لغة عليه أن يكتب كتاباً عن سفرته ليفيد بها العرب، وإذا كان في إمكانه إقناع الأثرياء بشراء مطبعة لطبع الكتب فيها لفائدة الرجال والنساء ليعرفوا مالهم وما عليهم...»[٢].

وكان الشدياق مغرماً بالحرية حتى طالب بها للعبيد في زمن الرق والاستعباد، ثم أليس هو الذي بنى كتاب (الساق على الساق) على مطلبين رئيسين أحدهما اللغة والثاني المرأة[٣].

وهناك من يجعله قرين رفاعة الطهطاوي في الدعوة إلى ضرورة تعليم المرأة في الشرق ومنحها حقوقها الاجتماعية، وبذلك كان رفاعة والشدياق أسبق من قاسم أمين في العناية بقضية المرأة. وكذلك كان للرجلين دورهما في مسألة العلم والدين والترجمة عن الغرب، وتطوير أساليب الكتابة[٤].

وفوق ما مر يمكن أن يعد الشدياق أحد الينابيع التي نبعت فيها الثورة السلفية في القرن التاسع عشر؛ لأنه كان يدعو مثل الأفغاني إلى بعث المجد العربي الإسلامي مع الأخذ بالتمدن الغربي. وهذا ما دعا إليه الشيخ محمد عبدة[٥].

وقد شبهته جريدة (البورس اجبسيان) الإفرنسية التي كتبت تحت عنوان فارس الشدياق شاعر الشرق الأدنى الكبير«ما بين سن ١٨٠٢ وسنة ١٨٨٧م أنشأ رجلان إن اختلفا موطناً ولغة فقد اتفقا في الاتجاه والمثل الأعلى. من المفيد أن نعلم أن هذين الرجلين اللذين لم يتعارفا أبداً قد جريا لغاية واحدة طول حياتهما فهذان الرجلان المعلمان المطلقان للغتهما قد تصرفا بها كما شاء بسهولة عجيبة أسخطهما محيطهما فعاشا يهجوانه شعراً ونثراً، المتسلطين في عصرهما، مقبحين الإساءة والجور. هاجم فيكتور هيغو الهيئة الاجتماعية من الجهة المدنية. فهجا العظماء ونابليون فأرسله إلى المنفى. أما الشدياق فانتقد في معظم كتبه رجال الدين الذين لم تتألم منهم بلاده وهم الذين سببوا موت أخيه أسعد الشاعر المعروف... لأنه بشّر بالمذهب البروتستانتي ثم انتهى أمر الشدياق باعتناق الإسلام...»[٦].

ويجمل مارون عبود رأيه في الشدياق أنه يصح فيه قول الشاعر:

وتزعم أنّك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فهو امرؤ قيس عصره، وحافظ زمانه، وفولتير جيله، وخليل القرن التاسع عشر...[٧].

---

(١) م. ن ٢: ٥٦.
(٢) م. ن ٢: ١٥٣.
(٣) مارون عبود: رواد النهضة: ١٥٧.
(٤) د. يحيى إبراهيم: ٤٧.
(٥) م.ن: ٤٧.
(٦) مارون عبود: جدد وقدماء: ١٦٠.
(٧) مارون عبود: رواد النهضة: ١٥٦.

wadod.org

مصادر ومراجع البحث

- البستاني: المعلم بطرس.
  دائرة المعارف ـ بيروت ـ دار المعرفة.
- جـ: هاملتن
  دراسات في حضارة الإسلام. ترجمة د. إحسان عباس وآخرون. دار العلم للملايين ١٩٦٤.
- جرجي زيدان.
  تاريخ آداب اللغة العربية ـ القاهرة ـ دار الهلال.
  مشاهير الشرق ـ القسم الأول ـ من مؤلفات جرجي زيدان الكاملة ـ بيروت ـ دار الجيل ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- حسين نصّار: الدكتور
  المعجم العربي ـ نشأته وتطوره ـ القاهرة، مكتبة مصر ١٩٦٨.
- الدسوقي: الدكتور عمر
  في الأدب العربي الحديث ـ دار الفكر العربي.
- رياض شمس الدين
  حرية الطباعة ـ مطبعة دار الكتب المصرية.
- الزركلي: خير الدين
  الأعلام ـ ط٣ـ بيروت ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.
- الزيات: أحمد حسن
  تاريخ الأدب العربي ـ ط ٢٤ القاهرة ـ دار نهضة مصر بالفجالة.
- سركيس: يعقوب إليان
  معجم المطبوعات العربية والمعربة ـ مصر ـ مطبعة سركيس ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م.
  الجاسوس على القاموس ـ الأستانة ـ مطبعة الجوائب ١٢٩٩هـ.
- الشدياق: أحمد فارس
  ديوانه ـ الأستانة، مطبعة الجوائب ١٢٩١هـ.
  الساق على الساق ـ القاهرة، مطبعة الفنون الوطنية.
  سر الليالي في القلب والإبدال ـ الأستانة ـ المطبعة العامرة السلطانية ١٢٨٤هـ.
  الواسطة في معرفة أحوال مالطة ـ ومعه كشف المخبا عن فنون أوربا ـ الأستانة ـ مطبعة الجوائب ١٢٩٩ هـ.
- شيخو: لويس اليسوعي
  الآداب العربية في القرن التاسع عشر ـ بيروت، المطبعة الكاثوليكية.

wadod.org

- صابات: الدكتور خليل
  تاريخ الطباعة في الشرق العربي ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٨م.
- طرازي: فيليب
  تاريخ الصحافة العربية ـ بيروت ـ المطبعة الأدبية ١٩١٤.
- عبد الجبار عبد الرحمن
  ذخائر التراث العربي الإسلامي ـ ١٤٠٨هـ/ ١٩٨١م.
- فنديك: إدورد
  اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ـ تصحيح محمد البيلاوي ـ مصر ـ مطبعة الهلال ١٣١٣هـ/ ١٨٩٦م.

الفيروزأبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي ٨١٧هـ/ ١٤١٥م.
القاموس المحيط ـ القاهرة ـ المكتبة التجارية ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م.

- مارون عبود
  جدد وقدماء ـ بيروت ـ دار الثقافة ١٩٥٤.
  رواد النهضة الحديثة ـ بيروت ـ دار العلم للملايين ١٩٥٢م.
  صقر لبنان ـ بيروت ـ دار المكشوف.
- ابن النديم: محمد بن إسحاق (نحو ٤٠٠هـ)
  الفهرست ـ القاهرة ـ مطبعة الاستقامة.
- الهوريني: نصر الأزهري ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م.

شرح ديباجة القاموس طبعة في مقدمة كتاب القاموس المحيط ـ القاهرة ـ المكتبة التجارية ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م.

- يحيى: إبراهيم عبد الكريم
  الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ـ القاهرة ١٩٧٢.